ISSN: 2253-0347
مجلـة علوم الإنسان والمجتمع
Journal of Human and Society Sciences
EISSN: 2602-781X
المجلد: 13 / العدد: 03 / السنة: 2024/ ص ص: 425 - 455

من مظاهر التنافس والصراع بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق

One of the manifestations of rivalry and conflict between the Umayyads in Andalusia and the Abbasids in the Levant

تاريخ الإرسال: 2024/05/04 تاريخ القبول: 2024/10/30 تاريخ النشر: 2024/10/31

عز الدين عقيبي[1]

[1] المدرسة العليا للأساتذة مسعود زوغار- العلمة، سطيف ، الجزائر،

EMAIL :azza.aguibi@gmail.com

الملخص

موضوع هذه الدراسة هو محاولة إماطة اللثام عن جانب مهم من العلاقات بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق، والمتمثل في وجود ظاهرة التواصل والتنافس بينهما في كثير من الأوجه والمجالات الثقافية والحضارية، في ميادين السياسة والعلوم والمعارف وفي الثقافة والفنون والدين ثم الاقتصاد، وذلك بالاعتماد على وصف وتحليل ومقارنة حيثيات كل منها، للوصول أخيراً إلى إزاحة الستار عن طبيعة العلاقات بين الدولتين وذلك بالرغم من القطيعة السياسية بينهما.

كلمات مفتاحية: الأمويين، العباسيين، الأندلس، الصراع، التنافس.

المؤلف المرسل: عز الدين عقيبي، **الإيميل:** azza.aguibi@gmail.com

Abstract:

The subject of this study is an attempt to uncover an important aspect of the relations between the Umayyads in Andalusia and the Abbasids in the Levant, which is represented in the existence of the phenomenon of communication and competition between them in many cultural and civilizational aspects and fields, in the fields of politics, science, knowledge, culture, arts, religion, and then economics, by relying on Describe, analyze and compare the merits of each, to finally reveal the nature of relations between the two countries despite the political rift between them.

Keywords: Umayyads, Abbasids, Andalusia, conflict, rivalry.

1. مقدمة:

يظل مجال العلاقات بين المشرق والمغرب في العهد الإسلامي ميداناً خصباً للبحث، ذلك أن العديد من المسائل المتعلقة به لازالت لم تستوف بحثاً في اعتباري، منها العلاقات بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق، فمنذ أن أعاد الأمويون تأسيس دولتهم في الأندلس من جديد، شهدت علاقاتهم مع العباسيين في المشرق صراعاً سياسياً اكتنفه في بعض الأحيان أحداث عسكرية مريرة، كادت أن تعصف بالحكم الأموي مرة أخرى بعد أن زال في المشرق، غير أن الصراع بينهما لم يقتصر على الجانب السياسي فقط كما هو شائع لدى الباحثين في هذا المجال (المقري أ.، 1388هـ/ 1968)، فبالإضافة إلى ذلك كان بينهما سجال شديد في كثير من الميادين الأخرى، لكن ما يلاحظ عليه أنه كان ذا طبيعة مغايرة ولم يكن بالمعنى الحقيقي للصراع.

وعليه أمكن التساؤل: ما هي هذه المجالات التي كانت مضماراً للسجال بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق؟ وكيف كانت طبيعة الصراع فيها؟

إن الإجابة على الإشكالية المطروحة ستحيلنا إلى الخوض في موضوع التنافس الذي كان بين الدولتين المذكورتين أعلاه، زيادة عن الصراع العسكري والسياسي الذي كان

محتدماً بينهما، وللكشف عن ذلك سوف نعتمد على عرض ووصف حيثيات التنافس بينهما في كل مجال، ولا يكتمل ذلك إلا من خلال المقارنة بينهما في بعض هذه الميادين.

إظافة إلى ذلك، وبما أن تفاصيل الصراع السياسي والعسكري بينهما باتت معروفة لدى الدارسين، فإنه يكفي هنا الإشارة إليها، وذلك لكي نترك مساحة أكبر لبيان الأوجه والميادين التي كانت محل سجال بينهما، وتكتمل صورة وحيثيات هذا الموضوع لدى القارئ.

2. **في الجانب السياسي**

1.2 التخاصم السياسي والصراع العسكري:

لقد ساء العباسيون في المشرق أن يقطع الأمويون جزءًا من الدولة الإسلامية، لهذا فقد حاولوا بكل الوسائل الممكنة الإطاحة بالأمويين في الأندلس عن طريق إثارة الخصوم ضدهم، وما حركة العلاء بن مغيث الجذامي في مدينة باجة (جنوب البرتغال حالياً) سنة 146هـ/763م إلا خير دليل على ذلك بإيعاز من الخليفة المنصور العباسي(136 ، 158هـ/ 753، 775م) (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 157) (ابن عذاري، ، 1400هـ/1980م صفحة 51، 52)، بعدها ظهرت حركة الصقلبي سنة 161هـ/778م في السواحل الشرقية للأندلس في مدينة تدمير، والتي كانت بإيعاز منهم في عهد المهدي العباسي(158، 169 هـ/ 775 ، 786 م) (مجهول، 1410هـ/1989م صفحة 100، 101)، ويقال أن ثورته كانت ضمن مؤامرة دولية كان من أعضائها العباسيون والفرنجة وبعض الثائرين في الأندلس، وفي مقدمتهم عبد الرحمان بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي المذكور آنفاً، وبالاشتراك مع سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي حاكم مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى في شمال اسبانيا، ونائبه الحسين بن يحي الأنصاري، حيث اتصلوا بشارلمان ملك الفرنجة لضرب سرقسطة ومن ثم الوجود الأموي في الأندلس (مجهول، 1410هـ/1989م الصفحات ص - ص 102 - 105)، غير أن مصير هذه الحركات الثورية التي كانت بإيعاز من العباسيين كان الفشل، مما أرغم الأخيرين على الاقتناع بالأمر الواقع خاصة وأن العباسيين كانوا يعيشون أوضاعاً داخلية مضطربة، مما حتم عليهم إعادة ترتيب أولوياتهم، فغدا الاهتمام بشؤونهم الداخلية أولى من التطلع إلى فرض هيمنتهم في

الخارج (الحجي، 1402هـ/ 1981م، ص289) (بيضون، 1406هـ/ 1986م الصفحات 186 - 189)، هذه إذن لمحة وجيزة عن تاريخ الصراع والتخاصم السياسي الذي كان بين العباسيين والأمويين.

أما عن أوجه التنافس بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق، وهي المعنية في دراستنا هذه فتتمثل فيما يلي:

2.2. التنافس في نظم الحكم والإدارة:

في هذا المجال فإن الأمويون وكثير ممن هاجروا من رعاياهم الشاميين (مجهول، 2007 صفحة 165) إلى الأندلس، حاولوا وضع أسس خلافة في الغرب الإسلامي تنافس خلافة العباسيين في المشرق، حتى في نمط الحكم،على الأقل منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري(9 م)، فالخليفة في الأندلس اتخذ بلاطاً كأنداده في المشرق، وكان له قصر كبير بجوار الجامع الكبير و حاشية مشَكَّلة (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 156)، فـ"الحكم الربضي"(الحكم الربضي (180-206هـ/ 789- 822م): هو الحكم بن هشام ابن عبد الرحمان الأول، كنيته " أبو العاصي" ويعرف كذلك بلقب " الربضي" وسمي كذلك لما فعله بسكان حي الربض بقرطبة حين انتفضوا عليه، أمه تسمى " زخرف"، ولد سنة 154هـ/ 774م، بويع بعد وفاة أبيه بليلة يوم الخميس 8 صفر 180هـ/ 789م، وهو ابن 26 سنة، تولى الإمارة مدة 26 سنة و11 شهرًا، توفي لأربع بقين من ذي الحجة سنة 206هـ/ 822م،) (ابن عذاري ا، 1400هـ/1980م، ص68)، كما قال عنه مؤلف مجهول في تاريخ الأندلس: "هو أول من جند الأجناد من المرتزقين بالأندلس، واتخذ المماليك المسترقين، وجمع الأسلحة والعدد، وارتبط الخيل على بابه، وناغى أكابر الملوك(أي نافسهم)، وبلغ عدد مماليكه خمسة آلاف مملوك" (مجهول، 2007 صفحة 175) (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 163)، بل قلدوا العباسيين في التلقب بالخلافة أيضاً منذ أن صعد عبد الرحمان الناصر(عبد الرحمان الناصر(300- 350هـ/ 912- 961م): هو الناصر لدين الله أو المطرف عبد الرحمان بن محمد وينتهي نسبه إلى عبد الملك بن مروان، ولي الإمارة سنة 300هـ/ 912م وهو ابن اثنتان وعشرون سنة، واستمر أميراً على الأندلس مدة خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، وكانت وفاته ليلة الأربعاء 2/رمضان/ 350هـ/ 961م، للمزيد عنه أنظر ابن سعيد (علي بن موسى ابن محمد ابن عبد الملك): المغرب في حلى المغرب،

تح شوقي ضيف، ط4، دار المعارف- مصر، (د، ت)، ج1، ص – ص 181- 186؛ أنظر كذلك ترجمته لدى ابن حزم، رسائل ، تح إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، 1987، ج2، ص ص 193، 194؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص – ص 201 – 204.) (مجهول م.، تاريخ الأندلس، تح عبد القادر بوباية ، ص 165.، 2007، ص201-204) إلى سدة الحكم في قرطبة، وإن كان الحكام من الأمويين قبله قد درجوا على التلقب بـ (الأمير)، وكذلك بـ (إبن الخلائف)، فعبد الرحمن الداخل ومنذ نجاحه في إقامة الإمارة الأموية في الأندلس لم يتلقب بلقب أمير المؤمنين، وإنما لقب بـ (الأمير)، وكذلك بـ(ابن الخلائف)، تأدباً مع الخلافة في مقر العرب بالجزيرة والشام - (حيث كانت العرب تعتبر أن من له الإشراف على قلب العرب مكة والمدينة في الحجاز فهو الأحق بلقب الخلافة) - ، وعلى هذا سار بنوه من بعده إلى أن جاء عبد الرحمن الناصر الذي استمر يتلقب بالأمير للفترة من 300 إلى 316 هـ/ 912 – 928م، وفي أواخر السنة السابعة عشر اتخذ لقب " الناصر لدين الله أمير المؤمنين"، وأصدر مرسوماً بذلك، وأعلن الخلافة الأموية في الأندلس منافساً بذلك خلافة بني العباس في بغداد، التي بدأ يأفل نجم قوتها الفعلية أيام المقتدر، حيث بلغه اغتياله على يد مولاه، ولَمَا رآه من ظهور الشيعة في القيروان، (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 156). (ابن سعيد، 1993 صفحة 182) (ابن عذاري، ، 1400هـ/1980م صفحة 198)

كما كانت الخطوط العريضة لتنظيم الإدارة في قرطبة تقوم على أسس منقولة من الإدارة العباسية ببغداد، وهو نفس ما حدث في تنظيم الخدم حيث جاء تقليداً مثيراً للغاية لما كان يفعله خلفاء بغداد، إذ تذكر المصادر التاريخيةّ أن (عبد الرحمان الثاني)(عبد الرحمان الثاني (206- 238 هـ/ 822- 852م):هو عبد الرحمان بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمان الأول، يكنى أبو المطرف، أمه اسمها " حلاوة"، ولد سنة 176هـ/ 791م، تولى الحكم سنة 206هـ/ 822م، واستمر أميراً على الأندلس طيلة إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام، وفاته بقرطبة ليلة الخميس 3 ربيع الثاني سنة 238 هـ / 852.) (ابن سعيد، 1993، ص45) قد أسهم بقسط وافر في تنظيم شؤون الدولة الأموية بالأندلس وفي كل المجالات، فهو أول من "دون الدواوين"، وقد سار في ذلك على النسق الذي كان سائداً لدى العباسيين بالمشرق، وفي هذا المجال كانت العيون التي يرسلها إلى هناك هي التي تمده

بحيثيات وتفاصيل النظم العباسية (ابن سعيد، 1993 صفحة ص ص 45، 46) (مجهول، 2007 صفحة 168) (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 63).

يقول ابن خلدون في مقدمته عن الحجابة والوزارة في الأندلس:" أما دولة بني أمية في الأندلس فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال الثغور وزيراً، وجُعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضَّدة لهم، ينفذون أمر السلطان هناك كلٌّ فيما جُعل له، وأُفرد للتردد بينهم وبين الخليفة الطبيعي إذن واحدٌ منهم، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصُّوه باسم الحاجب" (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 298)، ومن خلال هذا النص الذي قدمه لنا ابن خلدون، يبدو وجه التنافس بينهما في اعتماد حكام الأندلس في بداية عهدهم فيها لنفس رسم خطة الوزارة لدى العباسيين في المشرق، لكن سرعانما عدلوا عن ذلك، حيث زادوا عنهم بتقسيمهم لها إلى أصناف عديدة ومتنوعة بحسب الدور المنوط بكل واحدة منها، أي أنهم خصوا لكل ناحية من نواحي الإدارة العامة وزيراً مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة والمتمثلة في منصب(الحاجب) الذي يعتبر بمثابة رئيس الوزراء في وقتنا الحالي، الأخير الذي يقوم بدور الوساطة بين الأمير ووزراءه، إضافة إلى وجود بيت خاص في قصر الخليفة لانعقاد مجلس الوزراء، وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في المشرق حيث السلطة مركزة في وزير واحد وقلما وجد وزيران (العبادي، (د ت) الصفحات 148-150).

إلى جانب ذلك فقد قلدوا العباسيين في بداية دولتهم في توكيل مشاكل الأمن الداخلي في العاصمة قرطبة إلى (صاحب السوق)، شأنهم في ذلك كشأن العباسيين في المشرق، لكن سرعانما عدلوا عن ذلك أيضاً، فبعد أن كانت هذه الوظيفة كلها مركزة في يد شخص واحد جعلها "عبد الرحمان الثاني" مقسمة على عدة أشخاص بالصفة التالية:

1- صاحب السوق وقد اقتصر عمله على مراقبة الأسواق والنظر في مشاكلها التموينية، وهي وظيفة المحتسب فيما بعد.

2- صاحب الشرطة العليا وينظر في مشاكل علية القوم.

3- صاحب الشرطة السفلى وينظر في قضايا عامة الناس.

4- صاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة في المدينة التي تقوم مقام المجلس البلدي اليوم.

هذه الوظائف كانت تتغير في اختصاصاتها أحياناً ولكنها تتفق جميعاً في الإشراف على الأمن الداخلي أو ما يسمى بالقضاء المدني، (العبادي صفحة ص ص 150، 151) هذا ولم تقتصر المنافسة بينهما على هذه الوظائف فقط بل تعدت إلى وظائف أخرى كوظائف الكتابة والقضاء والحسبة والجيش (ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة ، ج4،، 1431هـ/ 2010م) (المقري، 1388هـ/ 1969).

3. في مجال العلوم والمعارف:

1.3. في تشجيع العلم والمعرفة:

لعل من العوامل الأساسية التي أسهمت في النهوض بالحركة العلمية في الأندلس هو حب الأمراء الأمويين أنفسهم للعلم، حيث كانوا يحرصون على تحصيله لدرجة أن بلغ بعضهم مرتبة العلماء، فهذا عبد الرحمان الداخل قال عنه ابن حزم أنه كان:" من أهل العلم" (ابن حزم، 1987 صفحة 191)، كما قيل عن محمد بن عبد الرحمان(محمد بن عبد الرحمان(238- 273 هـ/ 852- 886.م): هو محمد بن عبد الرحمان بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمان الداخل، يكنى أبا عبد الله، أمه اسمها "تهتز"، ولد سنة 207هـ/ 823.م بقصر قرطبة، تولى الإمارة سنة 238هـ/ 852م، وظل حاكما على الأندلس لغاية وفاته سنة 273هـ/ 886م،) (الحميدي،، 1989، ص40) (مجهول م.، وهو أحد حفدته أنه كان:"محباً للعلوم، مؤثراً لأهل الحديث عارفاً، حسن السيرةً " (الحميدي، 1410هـ/ 1989م صفحة ص 40)، أما عبد الرحمان الأوسط أو الثاني فقد كان عالماً مثلما ذكر المقري بقوله: " كان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة" (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 327)، أما ابن سعيد فقد ذكر بأنه:" كان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وأُطْنب في ذكره في العلوم، وأنه كان يداخل كل ذي علم في فنه" (ابن سعيد، 1993 صفحة 45)، ويضيف صاحب كتاب الأندلس أنه:" كان عارفاً بالتعديل والعلم بالأفلاك وكان يحفظ القرآن بالروايات السبع، ويحفظ أزيد من ثلاثة آلاف حديث مسنودة عن النبي صلى الله عليه وسلم" (مجهول، 2007م صفحة 183)، ومن الأمراء الأمويين في الأندلس الذين بلغوا

مرتبة العلماء الحكم المستنصر(الحكم المستنصر(350- 366هـ/ 961-977م): هو الحكم الملقب بـ "المستنصر" ابن عبد الرحمان الناصر، تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة 350هـ/961م، وكان يبلغ من العمر حينها 47 سنة، واستمر خليفة على بلاد الأندلس طيلة خمس عشرة سنة، وتوفي ليلة الأحد 2 صفر 366هـ/977م، (ابن سعيد، 1993، ص 194-196.)، الذي وصفه المؤرخون بأنه:" كان عالماً نبيهاً، ...، فاستوسع علمه ودق نظره، وجمَت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذياً نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله، بهذا وصفه ابن الأبّار" (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، حتى أن ابن الأبّار عاتب كل من ابن الفرضي وابن بشكوال على عدم ذكره مع بقية علماء الأندلس في مصنفاتهما (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، وكانت تلك هي الصفة التي لطالما تميز بها الحكام الأمويون في شبه الجزيرة الأيبيرية.

اعتباراً من تميزهم بهذه الصفة الحميدة، فقد دأب حكام الأندلس من الأمويين منذ تملكهم إياها على تشجيع العلم والعلماء مقارعة منهم للعباسيين في هذا المجال، إذ كانوا يأملون في جعل الأندلس وقرطبة خاصة قطباً من أقطاب العلم والمعرفة والثقافة، ولأجل تحقيق هذا الهدف قاموا بتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية ودينية وفلسفية ومختلف العلوم والمعارف الأخرى، عن طريق جلب الكتب القيمة من خارج الأندلس باستنساخ بعضها وشراء البعض الآخر بأغلى الأثمان، حيث بثوا في جميع الأقطار شبكة من العملاء للقيام بهذه المهمة، إلى جانب قيامهم بترجمة الكتب الأجنبية النافعة.

في هذا المضمار تذكر المصادر أن عبد الرحمان الأوسط كان أميراً أديباً مثقفاً، وشاعراً مطبوعاً ذا همة عالية، مغرماً بالفنون والعلوم، حريصاً على اقتناء الكتب وجلبها من الأمصار، فقد:" أرسل عباس ابن ناصح الثقفي الشاعر إلى المشرق-(وبالضبط إلى بغداد)- من أجل شراء الكتب النافعة فجاء بكتاب السند هند وغيره، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرَف أهلها بها ونظر هو فيها" (ابن سعيد، 1993 صفحة 45)، وقد وضح صاحب كتاب تاريخ الأندلس الكتب التي جلبها الأمير المذكور ومجالاتها بقوله :" هو أول من أدخل كتب الزيجات وكتب الفلسفة والموسيقى والحكمة والطب والنجوم إلى الأندلس" (مجهول، 2007م صفحة 184)، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس

المكتبات من الأمويين، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التي عمرت فيما بعد في عهد الحكم المستنصر.

كما يذكر عن الناصر أنه شرع في جمع الكتب من شتى اللغات وقام بتخزينها في المكتبة التي أسسها في قصره بمدينة الزهراء (زغروت، 1406هـ/ 1985م صفحة 337) (خوليان، 1958م صفحة 86)، ومن المؤكد أنه كان يأمل في تأسيس دار للحكمة على غرار دار الحكمة في بغداد لكن الظروف المحيطة به وكثرة الحروب لم تسعفه في تحقيق أمله، لكن في المقابل ترك لابنه المستنصر بلداً موطأً هادئاً وكثيراً من الأموال، مما ساعد ابنه المستنصر في النهوض بالحركة العلمية في الأندلس في عهده.

هذا الأخير أي الحكم المستنصر كان رجلاً عالماً منصرفاً إلى العلم والقراءة، وكان يحرص هو الآخر مثل أبيه على منافسة العباسيين في مجال العلوم والآداب، حيث تذكر المصادر أنه كان يقوم بشراء الكتب النادرة مهما غلى ثمنها (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، عن طريق عملاء له في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها، وكثيراً ما كانت تنتهي إليه مؤلفات بلاد المشرق قبل أن يقرأها أهلها هناك، ويكفي شاهداً في هذا الصدد أنه قدّم لـ (أبي الفرج الأصفهاني) مقابل كتابه (الأغاني) ألف دينار ذهبي ليرسل إليه نسخة من كتابه المذكور، فظهر الكتاب في الأندلس قبل أن يظهر في العراق مركز الخلافة العباسية، وكذلك فعل مع القاضي (أبي بكر الأبهري) المالكي في شرحه لمختصر (ابن الحكم)، ويؤكد ابن سعيد أن نفس الشيء فعله مع آخرين من أمثالهم (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 386) (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، وبهذه الطريقة استطاع تأسيس مكتبة ضخمة تذكر المصادر أنه خزن بها أربعمائة ألف مجلد في شتى العلوم والفنون المختلفة، وأنه قد وضع لها فهارس بلغ عددها أربع وأربعون في كل منها عشرون ورقة ليس بها إلا أسماء الكتب التي اجتمعت لديه (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة ص ص 385، 386) (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، ولم يكتفي بمجرد جمعها بل قيل إنه كان له اطلاع بأغلب الكتب التي في خزانته بقرطبة، وقلما تجد كتاباً منها ليس فيه تعاليقه وتوقيعاته (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 395).

إضافة لجمعهم الكتب في شتى مجالات العلم والمعرفة، فقد حثوا على التأليف والبحث في مختلف المجالات لصالح خزائن الكتب الأندلسية، مع تقديرهم للعلم والعلماء

حباً في العلم من ناحية ورغبة في منافسة العباسيين من ناحية أخرى، لذا فقد أحسنوا استقبال العلماء الوافدين من كل الأقطار والاهتمام بهم وتقريبهم والرفع من مكانتهم، استرضاء لهم حتى يستقروا في الأندلس ويتم بذلك الاستفادة من علمهم، فقد أحسنوا استقبال العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس بل أغدقوا عليهم العطاء، ويكفي شاهداً في هذا الصدد أن الناصر قد أحسن استقبال الوافد على الأندلس عام 330 هـ/941 م (أبي علي القالي)، بل جعله مؤدباً لابنه الحكم، وحمل القالي إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه، وبالذات دواوين أُمرئ القيس وزهير والنابغة والخنساء والأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم، هذا بالإضافة إلى كتب الأخبار واللغة، كما ألف كثيراً في الدراسات اللغوية، وأملى على طلبته الأندلسيين وغيرهم كتابه "الأمالي" (القفطي، 1955 صفحة 205)، هذا الكتاب عبارة عن محاضرات أملاها على تلاميذه الأندلسيين في مسجد قرطبة، ويتضمن فصولاً عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم، وأخبار تاريخية تتصل ببعض شعرائهم ..الخ (العبادي، (د ت) صفحة 211)، كما حظي أبي علي القالي بحظوة واهتمام الحكم الثاني الذي خلف أباه الناصر في الحكم، حيث ظل يدرس بجامع قرطبة في عهده أيضاً (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 386).

من بين العلماء أيضاً الذين حظوا باهتمام الحكم الثاني المؤرخ القرطبي (أبا بكر) المعروف بـ (ابن القوطية)، ومن أهم أعمال هذا الرجل كتاب في النحو يعرف بكتاب (الأفعال)، وكتاب في تاريخ الأندلس بعنوان: (تاريخ افتتاح الأندلس)، ومن شيوخ هذا العصر أيضاً العالم المغربي (محمد بن حارث الخشني) الذي انتقل من القيروان إلى قرطبة بدعوة من الخليفة الحكم المستنصر، الذي طلب منه كتابة تاريخ للقضاة في الأندلس وسمح له بدخول المكتبة الملكية والاستفادة من كنوزها، فكتب الخشني كتاب(القضاة بقرطبة)، الذي يتضمن معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية في الأندلس في هذه الفترة (العبادي، (د ت) صفحة 211)، وقد عرف الخشني بكثرة تآليفه التي زود بها مكتبة قرطبة نذكر منها: فضائل الإمام مالك، ومناقب سحنون، وفقهاء المالكية، والاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، والاقتباس، والفتيا، والرواة عن مالك، وتاريخ الإفريقيين، وغيرها (زغروت، 1406هـ/ 1985م صفحة 345)، كما قرب إليه(محمد بن القاسم بن شعبان) الوافد عليه من مصر، و(محمد بن يوسف الوراق) الذي طلب منه الحكم تأليف

كتاب عن افريقية فألف له كتاب (في مسالك افريقية وممالكها) (الضبي، 1967، صفحة 141) (الحميدي، 1410هـ/ 1989م صفحة 97)، وإلى جانب هؤلاء نجد علماء غير مسلمين أكرمهم الخليفة الحكم الثاني وقربهم إليه، مثل الأسقف المستعرب(ربيع بن زيد""Recemundo) الذي اشتهر بدراساته الفلكية والفلسفية. (العبادي، (د ت) صفحة 211، 212)

من علامات تقدير حكام الأندلس من الأمويين للعلماء أيضاً، أن الأخيرين كانت لهم الحرية في تأليف ما يشاءون من الكتب ونشر ما يريدون من أفكار وآراء، حتى أنهم كانوا ينهون الفقهاء المالكية والعامة عن ثني واعتراض العلماء في ذلك، حيث تخبرنا المصادر أنه ذات مرة حين دخل(أبو عبد الرحمان بقي بن مخلد) إلى الأندلس بكتاب(مصنف أبي بكر بن أبي شيبة)، وقرئ عليه، أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشنعوه، وحرضوا وسخطوا العامة عليه، ومنعوه من قراءته على الناس، لكن الأمير محمد أمر بإحضاره معهم رفقة بقي بن مخلد، وجعل يتصفح الكتاب بنفسه جزءاً جزءاً إلى أن انتهى إلى آخره، وظنوا أنه سيوافقهم الرأي، لكن بدل ذلك قال لخازن الكتب: "هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، ثم قال لبقي بن مخلد: أنشر علمك، وارو ما عندك من الحديث، واجلس للناس حتى ينتفعوا بك" (الحميدي،، 1989 صفحة 40).

هذا ولشدة إجلالهم العلماء وتقديرهم إياهم كثيراً ما كانوا يوقرون من قبلهم ويأتمرون بأمرهم لدرجة التوبيخ أحياناً، فما يكون من الأمراء إلا السمع والطاعة، من ذلك أن الناصر حين انتهى من بناء مدينة الزهراء أقام مأدبة عظيمة حضرها الأمراء والقضاة والفقهاء والقواد وغيرهم، فجعل كل واحد يطري ويمدح على طريقته، والناصر يتباهى بما قام به، وكان (سعيد البلوطي) إمام الصلاة بجامع قرطبة قاعداً آخر الناس وعليه ثياب رثة، فسأله الناصر ما رأيك؟ فوبخه بأن هذا من فعل الشيطان وأنه زين لك فعلك بما بذرته فيها من الأموال، ثم تلى عليه الآيات 128، 129 من سورة الشعراء، تذكره بضرورة تقوى الله في مال المسلمين، فأطرق الناصر وأمر بأن ينفضَ الجمع (مجهول، 2007م صفحة 207) (ابن سعيد، 1993 صفحة 183)، هكذا كانت مكانة العلماء لدى الأمراء الأمويين في الأندلس.

إظافة لما سبق ذكره، فقد عمل الحكام الأمويون في الأندلس على إيجاد مراكز العلم والثقافة: كالمساجد، والمكاتب، والقصور، والدور وغيرها، مما كان له الأثر الكبير في النهضة العلمية. (دويدار، ، 1414ه/1994م، الصفحات 382-387)، كما عملوا على تشجيع التعليم حتى يتسنى للجميع التعلم بما فيهم الضعفاء، الذين لم يكن لديهم المال لدخول المدارس التعليمية النظامية، فإنهم لم يحرموا من ذلك، وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الحكم المستنصر كانت له أعمال خيرة تمثلت في تيسيره العلم على الفقراء والمساكين مجاناً، يقول ابن عذاري:" ومن مستحسنات أفعاله، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع، وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد عليهم في الاجتهاد والنصح وابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً، منها حوالي المسجد ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة *** مكاتباً لليتامى من نواحيها

لو مُكنت سور القرآن من كلم *** نادتك يا خير تاليها وواعيها". (ابن عذاري، 1400ه/1980م الصفحات 240-241)

فما بالك بعدد المكاتب النظامية المخصصة لعامة الناس.

كما شجع أمراء الأندلس أهلها على الارتحال إلى المشرق بهدف الاستزادة من العلم والنهل من معارفه (المقري، 1388ه/ 1969)، حيث شد كثيرون من طلاب العلم الأندلسيين رحالهم إلى المشرق، ونهلوا من منابع العلم والأدب في الحجاز والشام ومصر وبغداد، ونقلوا إلى الأندلس علوم المشارقة، حيث توسعوا فيها وطوروا بعضها (حسين، ، 1431ه/ 2000م صفحة 383)، وهو ما أخبرنا به ابن حزم، الذي أشاد بنبوغ الأندلسيين وتفوقهم على المشارقة في كثير من العلوم والمعارف، ضمن إحدى رسائله التي تحمل عنوان: في فضل الأندلس وذكر رجالها (ابن حزم، 1987 الصفحات 171-188).

كل هذه العوامل كانت الروافد التي قامت عليها الحركة العلمية بالأندلس، والتي بلغت الذروة في القرن الرابع الهجري(10م)، الذي يعتبر بحق أزهى عصور الحضارة الأندلسية، خاصة في عصر الخلافة، أين نهضت الحركة العلمية والثقافية في الأندلس نهضة شاملة وازدهرت ازدهاراً عظيماً، كان من مظاهره وضوح الشخصية العلمية

والثقافية للأندلس، واستقلالها إلى حد كبير عن المشرق. (دويدار، ، 1414هـ/1994م، صفحة 388) .

2.3. في إنشاء المكتبات:

لقد سبق وأن ذكرنا أن الأمير عبد الرحمان الأوسط هو أول من اعتنى من الأمويين بجمع الكتب وتأسيس المكتبات لحفظها والاستفادة منها، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس المكتبات من الأمويين، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التي عمرت فيما بعد في عهد الحكم الثاني، ثم تدعمت هذه المكتبة أكثر في عهد الناصر وسليله المستنصر، إذ تذكر المصادر أن الناصر حين أنشأ مدينة الزهراء أسس بها مكتبة في قصره وخزن بها ما جمعه من كتب في شتى اللغات (خوليان، 1958م صفحة 337) (زغروت، 1406هـ/ 1985م صفحة 337)، غير أن اهتمامه بالحروب مع الشمال ومع الجنوب لم يسعفه ذلك في إنشاء بيت للحكمة على غرار بيت الحكمة في بغداد، واكتفى بإنشاء خزانة كبيرة في قصره، لكن من المؤكد أنه كان يأمل في تحقيق ذلك من وراء خوضه الحروب، ليترك لابنه الحكم الثاني تجسيد ذلك، وبالفعل ترك الناصر لابنه بلداً موطأً وهادئاً ووافراً من المال، وأخضع كل الثورات والقلاقل. (ابن حزم، 1987 صفحة 194)

ازدهرت المكتبة في عهد الحكم الثاني أو المستنصر، وحتى قبل أن يعتلي عرش الخلافة عام 350هـ/ 961 م، يعود الفضل في الجهود القوية التي بذلها في هذا الجانب، حيث استفاد من فترة الهدوء والسكينة التي أوجدها أباه من قبل وتوفر المال، بالإضافة لحبه العلم والكتب، فدعم المكتبة بالكتب التي جلبها من كل الأقطار (المقري، 1388هـ/ 1969 صفحة 386) (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، ويكفي لذلك شهادة ابن خلدون الذي قال عنه:" كان محباً للعلم جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، فأقام للعلم والعلماء سلطاناً ونفقات فيه بضائعه من كل الأقطار" (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 187)، ولأجل اقتنائها لصالح المكتبة فقد نظم شبكة من العملاء الباحثين عن الكتب والسماسرة والناسخين، انتشروا في كل البقاع منها مصر والحجاز والشام وبغداد وغيرها، إذ كانوا يقومون بنسخها أو شرائها، يقول المقري:" وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلبوا منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه". (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 386)

من بين الكتب التي اقتناها الحكم الثاني كتاب (الأغاني) لـ (أبي الفرج الأصفهاني) وأرسل إليه مبلغ ألف دينار من الذهب العين ثمناً له، كذلك فعل مع القاضي(أبي بكر الأبهري) المالكي في شرحه لمختصر(ابن عبد الحكم)، وفعل نفس الأمر مع أضرابهم (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 386)، وكان الحكم الثاني يقرأ المخطوطات ويدون ملاحظاته لذلك اكتست أهمية كبيرة (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة ص ص 385، 386) (ابن سعيد، 1993 صفحة 186)، بهذه الطريقة استطاع أن يجمع منذ أواخر حكم أبيه وطيلة حكمه نفسه، عدداً يضاهي تقريباً العدد الذي جمعه الخلفاء العباسيون برمتهم في وقت أطول بكثير (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 88)، حيث بلغ عدد الكتب أربعمائة ألف مجلد، وضعت لها فهارس دقيقة عددها أربعة وأربعون في كل منها عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الكتب والدواوين لا غير (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة ص 385، 394).

كما عمل الأمراء الأمويون على إثراء هذه المكتبة بمختلف الكتب والحفاظ عليها في نفس الوقت، من خلال حرصهم على تنظيمها وهيكلتها، حيث جعلوا لها شبكة من العمال لكل منهم دوره الخاص به، إذ كان يعمل فيها النساخون والمهرة في ضبط المتون والمجلدون للعناية بالمخطوطات وحفظها، يقول المقري:" وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله" (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 386) (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 532)، استقدم بعضهم من صقلية وحتى من بغداد، يعملون تحت إشراف موظف كبير من الصقالبة العاملين في قصر الخلافة (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 90)، وقد ذكر المقري صاحب الخزانة هذا باسم(تليد الفتى) (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 394)، ولم يكن هذا العمل حكراً على الرجال فقط، بل إن النساء كان لهن نصيب في ذلك، وهو ما أخبرنا به عبد الواحد المراكشي نقلاً عن ابن فياض في تاريخه في خلال إيراده لأخبار قرطبة، بل إنه ولكثرة العاملات في نسخ الكتب في الجهة الشرقية بقرطبة تساءل عما سيكون عددهن في جميع الجهات؟ حيث قال:" كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع الجهات؟". (عبد الواحد، 1994 صفحة 299)

على أن أهل الأندلس من العامة وتأسياً بالعاهل الأموي سرعانما أخذت تقلده في إنشاء مكتبات فنية خاصة بهم في دورهم وقصورهم، الأخيرين الذين كان كل واحد منهم يحرص بدوره على إنشاء مكتبة خاصة في بيته للعلم أو التباهي، يقول المقري نقلاً عن ابن سعيد في وصفه قرطبة وأهلها ما نصه :"هي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا أن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي بخط فلان قد حصله وظفر به" (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة ص ص 362، 363) ، حتى بلغ عددها سبعين مكتبة عامة. (الحجي، 1402هـ/ 1981م، صفحة 317)

لم يقتصر الأمر على جمع الكتب واستنساخها وتجليدها فقط، فقد ساهم العلماء بدورهم في إثرائها، حيث قاموا بالتأليف لصالح هذه الخزانة الملكية، إذ كثيراً ما كانوا يؤمونها لاستغلال ما فيها من النفائس في إنجاز أعمالهم العلمية، ومن بين أشهر رواد المكتبة والذين كانوا يعملون بها ويؤلفون لصالحها: كابن رشد القرطبي وابن مسرة القرطبي وابن سيده صاحب المعجم وعبد الله محمد ابن محمد، والقاسم ابن الدباغ، وأبو الوليد الباجي، وابن عبد البر وابن وضاح، والمنذر ابن سعيد، والقالي صاحب كتاب الأمالي، والمؤرخ الشهير ابن القوطية والشاعر العظيم محمد ابن هانئ الأندلسي (الحجي، 1402هـ/ 1981م، صفحة 265)، وغيرهم كثير، ويخبرنا ابن خلدون أن إنتاجهم كان من الجودة لدرجة أصبحوا ينافسون به أهل المشرق بقوله:"وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه" (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 528)، كما يخبرنا ابن خلدون أنهم أقاموا لها أسواقاً لتبادلها. (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 532)

3.3. في الكتابة:

يقول ابن خلدون في هذا المجال أن:" العرب لما فتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة، احتاجت الدولة إلى استعمال الخط، فطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه ثم إنهم أجادوا فيه" (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 527)، وهكذا بلغ الخط العربي درجة كبيرة من النضج والكمال مع مرور الزمن ولا سيما في العهد العباسي،

وغدا أنواعًا لا تعد ولا تحصى" وأنك لتجد خطًا واحدًا مثل الكوفي، قد تفرعت عنه خطوط أخرى حتى ربى عن خمسين نوعاً مثل: المحرُر والمشجر، والمربع، والمدور، والمتدخل، ...."، (مرتاض، 1994 صفحة 136) كما اشتهر الخط البغدادي الذي يمتاز" بجمال الرونق وحسن الرواء" على حد تعبير ابن خلدون، والذي أصبح الأكثر استعمالاً في المنطقة، أي المشرق، حتى غدا بديلاً عن الخط الكوفي. (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 528)

وقد نافس الأمويون بدورهم العباسيون في هذا المجال، إذ يذكر ابن خلدون أن الأمويين لما تمكنوا من تأسيس ملك جديد لهم في الأندلس، تميزوا بأحوالهم من الحضارة والمهن والخطوط، منها الخط المعروف بـ(الأندلسي)، (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 528) (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 151) الذي انتشر استعماله ليس في الأندلس فحسب بل إنه امتد استعماله إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي آنذاك، وبصفة أكثر في العدوة المغربية، حيث حل محل الخط الإفريقي الذي عفي عنه الزمن واندرست معالمه ولم يبقى منه أثراً إلا في بلاد الجريد(جنوب تونس)، ويضيف أنه بقي هو الأكثر استعمالاً إلى غاية عهد الموحدين، كذلك عرف منه لون خاص لدى المرينيين (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة ص ص 528، 529)، وهكذا غدا الخط الأندلسي يزاحم الخطوط العباسية في بلاد المغرب وغيرها من الأنحاء التابعة للعالم الإسلامي.

4. في المجال الثقافي والحضاري

1.4. في الفنون والآداب

يمثل اختيار (زرياب: هو الحسن علي بن نافع، ولد عام 173هـ/789م في العراق، وكان مولى للخليفة العباسي المهدي، ولقب "بزرياب" ، وهو(لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله)، وقيل لقب زرياب لأنه (شبه بطائر أسود غرد)، وكان وصل إلى قرطبة عام 206هـ/822م، وعمره لما لم يتجاوز نيفاً وثلاثين عاماً، ومكث في الأندلس إلى أن وافته المنية عام 238هـ/852م،) (المقري، 1388هـ/ 1969). المغني العراقي للإقامة في الأندلس بشكل نهائي حدثاً هاماً لا يدع مجالا للشك في حصول التنافس بين المملكتين المذكورتين، ذلك أن زرياب قد لقي تشجيعاً منقطع النظير من قبل أميرها عبد الرحمان الأوسط، فالمصادر تذكر أنه أرسل إليه كتاب يذكر فيه

تطلعه إليه ويرحب فيه بقدومه، وكتب إلى عمال البلاد أن يحسنوا إليه، وأن يوصلوه إلى قرطبة، وركب الأمير بنفسه وخرج من المدينة لاستقباله، وغمره بالهدايا، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه وخلع عليه، وكتب له في كل شهر مائتي دينار راتباً، وأن يجري على بنيه الذين قدموا معه، وكانوا أربعة، عشرون ديناراً لكل واحد منهم في الشهر، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وأن يقطع له من الطعام ثلاثة مئة مدى، ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 125) (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة 174) (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 67)، فما السر وراء كل هذا السخاء النادر من قبل الأمير على زرياب؟

إن تتبع ما قام به زرياب من أعمال جليلة وجريئة قياساً لعصره في بلاط قرطبة، والتي جعلت منه يتفوق في مظاهره على قصر بغداد لكفيل بالكشف عن سر كل هذا البذل، فهذا الفتى الموهوب سرعانما فرض نفسه على المجتمع القرطبي بمواهبه الأصيلة والفذة، فقد أبدع في المجال الذي يتصل بالأناقة، والشخصية التي يحتذى في كل أنماط الملابس الجديدة، ولم يتوقف تأثيره في مسلمي الأندلس عند هذا المظهر الخارجي فقط، وإنما تجاوزه إلى أنماط حياتهم الخاصة أيضاً. (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 68)

فقد أظهر عبقريته في مجال الموسيقى حيث أنشأ معهداً للموسيقى، وسرعانما ذاعت فيه الموسيقى الأندلسية التي أخذت لها سمات الأصالة كاملة، وكانت قبله وثيقة القربى بالمدرسة المشرقية في بغداد، التي أذاع إسحاق الموصلي صيتها (ليفي، 1414هـ/ 1994 صفحة ص 69)، والتي كانت تعرف بموسيقى الماخوري (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 126)، والى جانب هذا كانت له اختراعات فنية أخرى في المجال نفسه، فالمصادر تذكر أنه كان السباق إلى اختراع العود ذي الأوتار الخمسة، وحل مكان العود ذي الأوتار الأربعة، وكان يستعمل إلى ذلك الحين،" وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر، معتاضاً به من مرهف الخشب". (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 126)

كما كانت لزرياب تأثيرات أخرى أعمق في المجتمع الأندلسي، حيث كان يعلمهم طرائق إعداد الطعام الأكثر تعقيداً في المطبخ البغدادي، ودربهم على طريقة إعداد مائدة

راقية وأنيقة، لا تقدم فيها الأطباق فوضى بلا نظام كيفما اتفق، وإنما يجب البدء بأطباق الشوربة والسواخن، تليها أطباق اللحم وألوان الطيور المتبلة بالبهارات الجيدة، وفي دقة كاملة، وأخيراً تأتي أطباق الحلوى من الفطائر المصنوعة من الجوز واللوز والعسل، والعجائن المعقودة بالفواكه المعطرة، والمحشوة بالفستق والبندق (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 70)، واختار غطاء المائدة من سفر الأديم الرقيق، وعليه يقدم الطعام بدلاً عن الغطاء القطني الخشن، لأن الأول سهل التنظيف يزول عنه الوضر(الأوساخ) بأقل مسح، وأشاع بين الناس استخدام أواني الزجاج الرفيع بدل الأواني المصنوعة من الذهب والفضة. (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 128)، بل إن إبداعاته شملت أيضاً مجال الجمال، إذ كان يعلم الناس فن التزيين، وطرق الخضاب، وإزالة الشعر، واستعمال معجون الأسنان، وهندسة الرأس، فقد كان جميع من في الأندلس" رجل أو امرأة يرسل جمته مفروقاً وسط الجبين، عاماً للصدغين والحاجبين، فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، وإسدالها إلى أصداغهم، هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه". (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 127) (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 70، 71).

ووضع نظاماً لارتداء الأزياء المختلفة، وأوقاتاً محددة لتغييرها، ولكل فصل زيه المناسب، فيرتدي الناس الملابس البيضاء صيفاً فحسب، من مطلع حزيران أي يونيه، حتى نهاية تشرين الأول، أي أكتوبر، ويلبسون الملابس الملونة بقية أيام السنة، ويلبسون الأزياء الحريرية الخفيفة غير المبطنة، والسترات ذات الألوان الزاهية في فصل الربيع، ويلبسون في الخريف والشتاء الفراء والمعاطف ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، ينتقلون فيها تدريجياً حسب شدة البرد من الأخف إلى الأقوى (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 128) (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 71).

هذه الانجازات العظيمة لزرياب أو ما أصطلح عليه بـ(مراسيم زرياب)، غدت النظام الذي يسير عليه أهل الأندلس في جميع شؤون حياتهم سواء منهم الخاصة أو العامة،"حتى اتخذه ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه، واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به ". (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 127)

إلى جانب ذلك فقد اخترع الأندلسيون(الموشحات والأزجال)، لأنهم رأوها أقرب إلى التعبير عما في أنفسهم، وأسهل في التلحين والغناء، وأنسب إلى المغنيين الذين يتكسبون بغنائهم (أمين، 2012 صفحة 707)، وهكذا صارت للأندلس الأموية شخصيتها الفنية والثقافية التي تميزت بها عن نظيرتها في المشرق.

2.4. في فن العمران:

إن الحكام الأمويون ومنذ أن مهدت لهم الأندلس جعلوا من معركة البناء والتشييد من أهم أولوياتهم، إدراكاً منهم لأهميته، فهذا الناصر نفسه تذكر له المصادر التاريخية أبيات من الشعر يهيب فيها بدوره وآثاره البعيدة حيث قال:

" همم الملوك إذا أرادوا ذكرها *** من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم *** ملك محاه حادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه *** أضحى يدل على عظيم الشأن" (ابن سعيد، 1993 صفحة ص ص 179، 180)

لما كان البناء بمثل هذه الأهمية فقد اقتطعوا من أموال الخزينة العامة جزءاً معتبراً منها لأجل تحقيق ذلك، يقول علي ابن سعيد واصفاً لطريقة الناصر في تقسيمها:" وكان مشغوفاً بتضخيم البنيان والسلطة والجند، وقسم أموال جبايته على ثلاثة: قسم للجند والحروب، وقسم للبنيان، وقسم مدخر". (ابن سعيد، 1993 صفحة 183) (مجهول، 2007م صفحة 206)، ولم تقتصر جهودهم في التعمير والبناء على تخصيص الأموال الضخمة فقط، فإلى جانب ما سبق نجدهم قد جلبوا لتجسيد ذلك" عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية" (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة ص ص 184، 185)، لكي تكون على أكمل صورة وإتقان، بل تخبرنا المصادر أن الحكام الأمويون في الأندلس كثيراً ما كانوا يشرفون بأنفسهم على عملية البناء والتشييد وقليلاً ما كانوا يوكلون هذا المهمة إلى غيرهم، فالناصر تذكر المصادر أنه لم يحضر الصلاة والصلاة الجامعة لمدة ثلاث أسابيع كاملة لمباشرته بنفسه الإشراف على بناء مدينة الزاهرة (مجهول، 2007م صفحة 207)، كما كان يولي مهمة البناء إلى ابنه الحكم ولا يوكلها إلى غيره. (ابن عذاري، ، 1400هـ/1980م صفحة 231)

كان هذا دأب حكام الأندلس من الأمويين منذ أن دانت لهم، بدءاً بعبد الرحمن الداخل الذي أقام المسجد الجامع في قرطبة سنة 168هـ/ 784 م(لقد انتشرت في ذلك الوقت ظاهرة بناء المساجد في البلاد الإسلامية عموما وفي الأندلس خصوصا، باعتبار أن المسجد هو المركز الذي كانت تقوم عليه الحياة في شتى النواحي، فقد كان يمثل مركز المدينة وقلبها النابض، فهو المكان الذي يجتمع فيه المسلمون حيث كانوا يقررون فيه أمورهم السياسية المستجدة، بالإضافة لذلك فهو المكان الذي يفصل فيه في الخصومات القضائية سواء العامة أو الخاصة، إلى جانب ذلك فقد كان المكان المخصص ليدرس فيه الطلاب شتى العلوم والمعارف كما كانت تقام فيه الحلقات والمناظرات العلمية، فضلا عن كونه مكان مخصص لإقامة مختلف الشعائر والعبادات الدينية، وقد بلغ عدد المساجد في مدينة قرطبة وحدها أيام عبد الرحمان الداخل حسبما أفاد به الحميري ما عدده 491 مسجدًا) (الحميري، 1408هـ/ 1988م، ص203)، على أنقاد كنيسة قديمة بعد أن اشتراها من أصحابها بما قيمته مائة ألف دينار، وانفق فيه من الأموال ما قيمته ثمانون ألف دينار أيضاً، واكتمل بنائه سنة 170هـ/ 786م (ابن عذاري، ، 1400هـ/1980م صفحة 229)، (مجهول، 2007 صفحة 166) فجاءت هيئته على أحسن ما يكون من الأوصاف وفي ذلك قال عنه الحميري:" إنه الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجل مصانع الدنيا كبر ساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية من الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف، فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً" (الحميري، 1408هـ/ 1988م صفحة 153) (ابن عذاري ا.، 1400هـ/1980م)، ولذا أصبح يضرب به المثل في العظمة والفخامة والاتساع والزخرفة، وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفاً ضافياً كالمقري على لسان القاضي أبو محمد ابن عطية، وكان يعد مفخرة من مفاخر قرطبة حيث قال:

"بأربع فاقت الأمصار قرطبة *** منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة *** والعلم أكبر شيء وهو رابعها" (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 146)

كما أنشأ المتنزه الملكي المعروف باسم(الرصافة) في غرب ظاهر مدينة قرطبة على سفح الجبل المطل عليها، محاكياً في ذلك قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه خارج دمشق في بادية الشام سنة 100هـ/ 718م وسماه بهذا الاسم أيضاً (العبادي، (د ت) صفحة 109)، واستمر حفدته الذين ورثوا الحكم عنه في البناء والتشييد، إذ تخبرنا المصادر أن ابنه هشام(هشام الرضى (172- 180هـ/ 789- 796م): هو هشام الرضى بن عبد الرحمان الداخل، ولد يوم 4 شوال سنة 139هـ/ 757م، بقصر قرطبة، يلقب بـ' أبو الوليد"، بويع له بعد وفاة أبيه يوم السبت 01 شوال سنة 172هـ/ 789م، استمر في الحكم مدة سبع سنين وستة أشهر، وتوفي في ليلة الخميس 08 صفر عام 180هـ/ 796.م) (مجهول م.، تاريخ الأندلس، تح عبد القادر بوباية، ، 2007م، ص 169- 174.) هو"الذي بنى القنطرة على وادي قرطبة، وانفق فيها أموالاً جليلة" (مجهول، 2007 صفحة 171)، حتى أنها صارت مفخرة لأهل قرطبة أمام غيرهم كما مر بنا في البيتين السابقين.

أما أكثرهم نشاطاً في ذلك فلعله عبد الرحمان الأوسط، حتى قيل عن عهده أن الأندلس خرجت من طور البداوة إلى عهد الحضارة، فقد كان عصره حافلاً بجليل الأعمال الإدارية والعمرانية (العبادي، (د ت) صفحة 148)، فقد بنى مسجد عدبس على اسم القاضي عمر بن عدبس الذي اشرف على بنائه سنة 214هـ/ 829م، كذلك أمر عبد الرحمان الداخل ببناء مسجد آخر في مدينة جيان gaen سنة 210هـ/ 825م (ابن عذاري، 1400هـ/1980م صفحة 82)، أما المسجد الجامع بقرطبة فقد زاد فيه عبد الرحمان الأوسط زيادة كبيرة من ناحية المحراب جنوباً، وقد بلغ طول هذه الزيادة خمسين ذراعاً، وعرضها مائة وخمسين ذراعاً، وعدد سواريها ثمانين سارية، ثم نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه زيادته سنة 234هـ/ 848م (العبادي، (د ت) صفحة 151)، كذلك حرض جواريه على بناء المساجد في مختلف أحياء العاصمة من مالهن الخاص، فنسمع عن مسجد طروب، ومسجد الشفاء، ومسجد فجر ... الخ، (مجهول، 2007 صفحة 184) والى جانب هذه المنشآت الدينية هناك منشآت أخرى دنيوية، يذكر منها بناء مدينة مرسية سنة 216هـ/831م، وكانت مرسية قبل ذلك قرية خاملة في كورة تدمير على الساحل الشرقي الأندلسي، ثم لم تلبث أن صارت قاعدة للكورة، ثم سميت الكورة كلها باسمها، كذلك أحاط اشبيلية بسور حجري كبير بعد غارة

النورمانديين عليها، وفي قرطبة أقام على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير طريقاً ساحلياً أو كورنيشًا عرف بالرصيف وذلك في سنة 213هـ/ 827م. (العبادي، (د ت) صفحة 152)

أما عصر الناصر فقد اشتهر بالرقي والازدهار الداخلي، وبالمنشآت المعمارية العظيمة التي تمت في عهده، منها بنائه لمدينة الزهراء والقصر المعروف بالروضة، إذ يقول ابن خلدون عن ذلك:" ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمان الأوسط وجده الحكم قد اختلفوا في ذلك، وبنوا قصورهم على أكمل الاتفاق والضخامة، وكان منها المجلس الزاهر، والبهو الكامل والقصر المنيف فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم، وسمُاه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المتنزهات فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على بعد المسافة، ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسياً لملكه، فأنشأ فيها المباني والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج ومسارح الطيور ومظللة بالشباك واتخذ فيها دارًا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس" (مجهول م.، تاريخ الأندلس، تح عبد القادر بوباية، ، 2007م، ص204-208) (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة ص ص 184، 185)، ومن أعمال الناصر المعمارية الهامة، إعادة بناء مدينة سالم التي تقع شمالي مدريد بنحو 153 ك.م في الطريق الذي بين مدريد وسرقسطة، وقد أعاد بناءها وجعلها ثغراً حربياً لمواجهة إمارة قشتالة الناشئة. (ابن عذاري، ، 1400هـ/1980م صفحة 314) (العبادي، (د ت) صفحة 208)

هكذا عم البناء جميع بلاد الأندلس، حتى أن ابن سعيد على لسان المقري يصف العمارة في الأندلس بأنها صارت من الكثرة حتى لا يكاد يكون هناك انفصال بين مدينة وأخرى بقوله:" وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة، ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها، ... ، وفي الأندلس جهات تقرب

فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت إلى اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة، وهذا كثير في الأندلس، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو، فحصل لها بذلك التشييد والبناء..." (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 205)، ويؤكد ذلك ابن حوقل النصيبي حيال المدن الأندلسية وأهمها العاصمة قرطبة والتي زارها في القرن 4هـ/10م، فرغم أنه ذم أهلها إلا أنه مدحها اقتصادياً ورأى أنه لا يعدلها في ثرائها إلا ثروة الحمدانيين في حلب، وأخيراً أنصف قرطبة العاصمة حتى أنه وصفها بـ(بغداد الثانية) وأعجب بمدينة الزهراء الملكية، وبفخامة وثراء حي الخاصة في ضاحية الرصافة (ابن حوقل، 1992، صفحة 107) (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 54)، بل ترك لنا وصفاً حياً لهذه المدينة بقوله:" وهي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل، وسعة محل، وفسحة أسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق" (ابن حوقل، 1992، صفحة 107)(ولقد وصف ابن عذاري قرطبة وصفا ضافياً في العهد الأموي حتى أنه ذكر عدد دورها ومساجدها وقصورها وأرباضها (أي شوارعها)، كما ذكر عدد ساكنيها من الصقالبة وغيرهم) (ابن عذاري ا.، 1400هـ/1980م، ص232، ويضيف ابن حوقل عن المدن الأندلسية التي تطل على البحر المحيط كاشبيلية و سدونة وبلنسية وطرطوشة:" وجميع ما ذكرت من المدن على البحر فمدن كبار عامرة مشحونة بالمرافق التي يفتخر بها أهل النواحي في بلادهم ومنابرهم، ولم تزل الأندلس في يدي بني مروان إلى اليوم" (ابن حوقل، 1992، صفحة 105)، ولا شك أن الأمر نفسه كان في جميع مدن الأندلس، وخصوصاً العاصمة قرطبة التي وصفها ابن حوقل ببغداد الثانية، مما جعل أهلها يتباهون بها وبمدنهم الأخرى أمام غيرهم كما مر بنا، كما نستشعر ذلك الجهد المضني من قبل الخلفاء المروانيين وحرصهم على أن تصبح الأندلس مكاناً حضارياً، منافسين في هذا المجال بقية المناطق الإسلامية ومنها المشرق.

5. في المجال الديني:

في هذا المجال تذكر المصادر أن الحكم الأول المعروف بـ(الربضي)، بعدما أمّ بعض علماء الأندلس صوب المشرق، وتلقوا العلم على يد الإمام(مالك بن أنس) المتوفى

سنة 179هـ/ 795م، صاحب المذهب المعروف به، نقلوا إلى الأمير حين عادوا إلى قرطبة ما لمسوه عند إمام دار الهجرة وعالمها من تقدير لمملكة الأمويين في الأندلس، ومقولته حين وصف زياد ابن عبد الرحمان أحد طلبته الأمير الحكم لمالك بن أنس فقال الأخير:"ليت إن الله تعالى زين موسمنا بمثل هذا" (المقري، 1388هـ/ 1968 صفحة 327)، إضافة لعلو كعبه في العلم وجلال قدره وإمامته لأهل مدينة رسول (ص)، سارعوا إلى الإقتداء به والإفتاء بمذهبه بأمر من الحكم الأول(أي الربضي)، وتحولوا عن مذهب(عبد الرحمان بن عمرو الأوزاعي) إمام الشام المتوفى سنة 157هـ/754م، الذي كان معمولاً به في الأندلس إلى ذلك الحين، (المقري، 1388هـ/ 1969م صفحة 230) (مجهول، 2007 صفحة ص ص 175، 176) إن قرار الحكم الأول باعتماد المذهب المالكي بدل المذهب الأوزاعي الذي كان معمولاً به في الأندلس، يعد في حد ذاته تحدياً من نوع آخر للعباسيين في المشرق، فقد حرر الدولة الأندلسية من الوصاية الدينية للعباسيين، مما فتح المجال واسعاً أمام الدراسات الفقهية في الأندلس (ليفي، 1414هـ/ 1994م صفحة 59) (العبادي أ، ص114-118)

6. في الجانب الاقتصادي:

لقد وضع حكام الأندلس من الأمويين هدفاً لهم تمثل في الاستغناء عن المشرق في شتى المجالات، ومنها المجال الاقتصادي، ولقد سبق لنا وأن وقفنا على استغنائهم عنهم في الوصاية السياسية والدينية، نفس الشيء انتهجوه في هذا الميدان، خاصة وأن الأندلس قد حباها الله بثروات متنوعة كثيرة تنوء عن العد والإحصاء (المقري، 1388هـ/ 1968 الصفحات ص - ص 140- 144).

1.6. في الزراعة

ففي المجال الزراعي شهدت الأندلس تقدماً ملحوظاً ولم يكن بأقل من تفوقهم في مجال الحرب والجهاد، ولا سيما في العصر الأموي، أين نجح المسلمون في الأندلس في تحويل الكثير من الأراضي المقفرة فيها إلى أراض صالحة للزراعة، من خلال تنشيطهم لمختلف الزراعات و توزيع الأراضي على الفلاحين وتمليكها للبعض الآخر، بعدما قضوا على الملكيات الكبيرة التي كان يملكها الإقطاعيون من القوط الأسبان، إلى جانب ذلك فقد أدخلوا إلى الأندلس الكثير من المزروعات والأنواع الجديدة من الأشجار والنباتات، والتي

جلبوها من المشرق،-(ويبدو أن هدفهم من وراء ذلك أن يستغنوا عن الحاجة إليهم في هذه الأنواع وإلا بما نفسر جلبهم لها وزراعتها بالأندلس)-، مثل النخيل والرمان وخصوصاً الرمان السفري، والقطن الذي اشتهرت زراعته باشبيلية، كما أدخلت زراعة قصب السكر حيث كانت تنتج منه كميات كبيرة، وكان من أهم مراكز زراعته ألبيرة، ومالقة، واشبيلية، وكذلك الأرز الذي أدخلت زراعته في شرق الأندلس وخاصة في منطقة بلنسية، وقد كانت أكثر حاصلات البلاد مما تجود زراعته في حوض البحر المتوسط مثل: القمح والشعير والقطن والكتان والأرز والبقول والموالح والكروم والزيتون والموز والتين والخوخ وغيرها، وكان مما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس في العصر الأموي الاهتمام بشؤون الري، مثل إنشاء الترع والجسور، وشق القنوات وتنصيب الناعورات التي تدفع وتنقل المياه، وإقامة القناطر إلى غير ذلك، وقد وضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بـ(التقويم القرطبي)، أصبح دليلاً تحدد على أساسه مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة وأخذه عنهم غيرهم من الأمم. (دويدار، ، 1414هـ/1994م، الصفحات ص - ص 341- 345)

2.6. في الصناعة

أما الصناعة فقد شجعها الأمراء الأمويون أيضاً حتى يتم لهم الاستغناء عن الغير، إذ يذكر صاحب كتاب تاريخ الأندلس عن ما بذله عبد الرحمان الأوسط حتى يستغني عن العملة المشرقية، التي كانت هي أساس التعامل بين الناس في الأندلس إلى ذلك الوقت :" وهو أول من ضرب السكة بقرطبة من بني أمية، فضرب الدراهم منقوش عليها اسمه، واتخذ لها داراً لضربها، وجعل عليها الأمناء، ولم تكن فيها منذ فتحها العرب، وكان أهلها يتعاملون بما يحمل إليهم من دراهم المشرق ودنانيرهم"، ويضيف:" وفي أيامه (...) بنى المصانع"، (مجهول، 2007 صفحة 186) ولعل من بين هذه المصانع دار الطراز إذ تذكر المصادر أنه:" في أيامه اتخذ الطراز الذي كان حديث الرفاق، وطرفة أهل الآفاق" (ابن الخطيب، 1956، صفحة 20)، بعده كثرت هذه الدور وهي تختص بصناعة الملابس المختلفة للأمراء والخلفاء ورجال الدولة والجند (ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة، ج4، ص 157، 1431هـ/ 2010م، ص329-330.

كما اشتهرت في الأندلس أيام الأمويين صناعة السفن والمراكب، وقد ساعد على ذلك الغابات المنتشرة بها، وقد كانت هذه الصناعة من الصناعات الموجودة قبل فتح الأندلس، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التي كانت منتشرة في عدة أماكن مثل طرطوشة وطركونة ودانية وبجانة، واشبيلية والجزيرة الخضراء، ولما قدم عبد الرحمان الداخل اتخذ سنة 144هـ/ 761م دوراً لصناعة السفن في المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة، وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب، بالإضافة إلى توفر معدن الحديد الذي تحتاج إليه وخاصة في شلطيش (حسن، 1986، صفحة 209)، وقد أنشأ الناصر بدوره العديد من دور صناعة السفن في الجزيرة الخضراء، حيث أفاد الحميري أن الناصر بنى فيها دار صناعة للأساطيل، أتقن بناؤها، وعلا أسوارها، لأن مرساها هو أيسر المراسي وأقربها من بر العدوة، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (الحميري، 1408هـ/ 1988م صفحة ص ص 173، 174) (العبادي، (د ت) صفحة 188)، ويذكر عنه حين شيد مدينة الزهراء أنه "...اتخذ فيها داراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن"، (ابن خلدون، 1431هـ/ 2010م صفحة ص ص 184، 185) كما ذاعت بالأندلس صناعة الورق والتي من المرجح أنها ظهرت في العصر الأموي، وخاصة بعد تقدم الحركة العلمية وانتقلت إليها من المشرق، إذ يذكر الإدريسي في كلامه عن مدينة شاطبة:" أنه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض وأنه يعم المشارق والمغارب" (الإدريسي، 1422هـ/ 2002م، صفحة 556)، أي أنه صار يصدر إلى بغداد بعدما انتقل إليها منها في البداية.

هكذا عمت دور الصناعات المختلفة البلاد حتى اشتهر أهل الأندلس بإجادتهم لمهن وصناعات مختلفة، والتي أورد لنا بعضاً منها ابن سعيد في خلال وصفه لما كان أهل الأندلس يصنعونه، بل إنه فضل صناعاتهم عن صناعات غيرهم من أهل مناطق العالم الإسلامي الأخرى، وأنها باتت مطلوبة لجودتها وحسن إتقانها من قبل أهل المشرق حيث قال:" والى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالوشي المذهب، الذي يتعجب من حسن صناعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئًا، وفي تنتالة من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالي في ثمنها بالمشرق، وصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد

المختم ذو الألوان العجيبة، ويصنع في مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد، من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى افريقية وغيرها، ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب وفخار مزجج ومذهب، ويصنع بالأندلس نوع من المفصص المعروف بالمشرق بالفسيفساء، ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفصص، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان، وما يجري مجراه"، إضافة لصنعهم آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر، وأن سيوف مدينة برذيل (وهي مدينة بوردو الحالية بفرنسا) في الشمال الشرقي للأندلس، كانت هي الأكثر شهرة من بين السيوف المصنوعة في البلاد، وأن اشبيلية اشتهرت بجودة حديدها، وأكد أن بها كثير من الصنائع التي يطول ذكرها (المقري، 1388هـ/ 1968 الصفحات 201-202)

نلمس من النصوص الفارطة أن الأندلس أصبحت تصدر إنتاجها من مختلف المصنوعات إلى افريقية وغيرها، بل والى المشرق بعدما كانت هي من تستقبل منتجاته في الماضي، وهذا الاستقلال الاقتصادي الذي عمل الأمراء الأمويون على تحقيقه، إنما يعكس بصورة جلية مدى منافستهم للمشارقة من جهة واستغنائهم عنهم من جهة أخرى.

7. خاتمة:

بعد أن تطرقنا لكل هذه المجالات التي كانت ميداناً للصراع والتنافس بين الأمويين في الأندلس والعباسيين بالمشرق، نصل إلى جملة من النتائج والمتمثلة في:

1- أن العلاقة بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق كانت متوترة إلى أبعد الحدود نظراً للصراع السياسي والعسكري الذي كان محتدمًا بينهما.

2- أن الصراع بينهما لم يقتصر على المجال السياسي فقط بل تعداه إلى مجالات أخرى.

3- بالرغم من الصراع المذكور فقد كان بين الطرفين المذكورين تواصلاً حضارياً، تجلى في انتقال كثير من مظاهر الحضارة المشرقية إلى الأندلس وبالعكس.

4- أن التنافس بينهما برز في المجال السياسي نفسه في النظم السياسية والإدارية ، وظهر كذلك في كثير من حيثيات مجال العلوم والمعارف، بدعم الحكام الأمويين للعلم والمعرفة، وإنشاء المكتبات، واختراع الأندلسيين للخط الأندلسي كبديل عن الخطوط المشرقية، كما اهتموا بالبناء والعمران لجعل الأندلس الأكثر تمديناً وحضارة، وتجلى التنافس بينهم في المجال الديني حين تخلى الأمويون عن المذهب الأوزاعي القديم وتبني المذهب المالكي بدله غير المعتمد لدى العباسيين، أما في مجال الفن والموسيقى فقد بدا التنافس بينهم بشكل واضح من خلال ما أبدعه زرياب من مخترعات تخص الموسيقى والطرب، وما تعلق منها بالنظم الاجتماعية، والتي عرفت بمراسيم زرياب، والتي غدت الطابع الذي ميز المجتمع الأندلسي لفترة طويلة استمرت لما بعد العهد الأموي، كما نلاحظ التنافس بينهما في المجال الاقتصادي من خلال حرص الأندلسيين على الاستغناء عن المشارقة في كثير من المنتجات الزراعية والصناعية ومنافستهم في نفس الوقت.

5- أن الأندلسيون لم يكتفوا بمجرد النقل عن المشارقة بل عملوا على مقارعتهم والتفوق عليهم في كثير من الميادين.

6- أن التنافس بين الأمويين في الأندلس والعباسيين في المشرق كان واقعاً ملموساً ومعاشاً بين الطرفين.

7- أن العلاقات بينهما تميزت بالصراع في المجال السياسي، لكن في غيرها من المجالات كان ذا طبيعة مغايرة، حيث ظهر بشكل تنافس كامتداد للصراع السياسي والعسكري.

8. قائمة المراجع:

1. أحمد بن يحي بن محمد الضبي. (1967،). ، *بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس* ، . القاهرة،: دار الكتاب العربي.

2. ابن حزم. (1987). ، *رسائل ، تح إحسان عباس، ط2*، (المجلد ج2،). بيروت-لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

3. ابن عذاري. (1400هـ/1980م). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومر ج س كولان وليفي بروفنسال*، (المجلد ج2). بيروت- لبنان،: دار الثقافة،.

4. أبي عبد الله محمد ، بن عبد الله بن الإدريسي. (1422هـ/ 2002م،). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. القاهرة- مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

5. أبي عبد الله محمد، بن عبد ، المنعم الحميري. (1408هـ/ 1988م). *صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح وتع ليفي بروفنسال*. بيروت -لبنان: ، دار الجيل.

6. أحمد أمين. (2012). *ظهر الإسلام، ، (د ت)، ص 707*. ، مصر: نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

7. أحمد بن محمد، المقري. (1388هـ/ 1968). *نفح الطيب من عصن الأندلس الرطيب*، (المجلد ج1). بيروت - لبنان: دار صادر.

8. أحمد، مختار العبادي. ((د ت)). *في تاريخ المغرب والاندلس*. بيروت-لبنان: دار النهضة العربية.

9. الحميدي. (1410هـ/ 1989م). ، *جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، ط2* (المجلد ج1). القاهرة، لبنان: دار الكتاب المصري- ودار الكتاب اللبناني.

10. المراكشي ابن عذاري. (، 1400هـ/1980م). ، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومر ج س كولان وليفي بروفنسال*، (المجلد ج2). بيروت- لبنان: دار الثقافة،.

11. المراكشي عبد الواحد. (1994). ، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم ومحمد عزب*،. القاهرة – مصر: دار الفرجاني للنشر والتوزيع،.

12. المقري. (1388هـ/ 1969). *المصدر السابق، ص ص 385، 386* (المجلد ج3).

13. النصيبي ابن حوقل. (1992،). *صورة الأرض ،.* ، بيروت – لبنان،: منشورات دار مكتبة الحياة.

14. بروفنسال، ليفي. (1414هـ/ 1994م). *ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في الأندلس، تر الطاهر أحمد مكي، ،ط3*، . القاهرة- مصر: دار المعارف.

EISSN: 2602-781X————————ISSN: 2253-0347

15. بيضون. (1406هـ/ 1986م). *الدولة العربية في اسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة (92 – 422 هـ/ 711 – 1031)، ط3، ص – ص 186 – 189*. بيروت-لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

16. جمال الدين أبو الحسن، القفطي. (1955). *إنباه الرواة على أنبه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1* ، (المجلد ج1). القاهرة، مصر: دار الكتب.

17. ريبيرا خوليان. (1958م). ، *المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية* (المجلد مج4، ع1(31 ماي)). مصر: مجلة معهد المخطوطات العربية.

18. عبد الرحمان ابن خلدون. (1431هـ/ 2010م). *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة ، ج4*، (المجلد ج1). بيروت- لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

19. عبد الرحمان ابن خلدون. (1431هـ/ 2010م). *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة، ج4، ص 157*. بيروت- لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،.

20. عبد الرحمان ابن خلدون. (1431هـ/ 2010م). *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة، ج4، ص 157* (المجلد ج4). بيروت- لبنان،: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،.

21. عبد الرحمان ابن خلدون. (1431هـ/ 2010م). *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة، ج4*، (المجلد ج4). بيروت- لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

22. عبد الرحمان ابن خلدون. (1431هـ/ 2010م). *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق وتعليق سهيل زكار وخليل شحادة، ج4، ص 157* (المجلد ج1). بيروت- لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

23. عبد الرحمان علي الحجي. (1402هـ/ 1981م،). *التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92 – 897 هـ/ 711 – 1492 م)، ط2، .* دمشق – بيروت، سوريا - لبنان: دار القلم.

24. علي بن موسى ابن عبد الملك، ابن ابن سعيد. (1993). *المغرب في حلى المغرب،ط4، تح شوقي ضيف،* (المجلد ج1). القاهرة - مصر: دار المعارف.

25. لسان الدين ابن الخطيب. (1956،). *أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام،، تح ليفي بروفنسال،، ق 2 ،.* بيروت: ، دار المكشوف.

26. محمد ابراهيم زغروت. (1406هـ/ 1985م). *مكتبة الأمويين الإسلامية في قرطبة وتأثيرها الفكري في شعوب غرب أوربا* (المجلد ،ع 17). السعودية: مجلة البحوث الاسلامية.

27. محمد مرتاض. (1994). ، *الخط العربي وتاريخه،.* الجزائر،: ديوان المطبوعات الجامعية،.

28. محمد، أحمد، بن المقري. (1388هـ/ 1969م). *نفح الطيب من عصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس* (المجلد ج3). بيروت- لبنان: دار صادر.

29. منى حسن. (1986،). *المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (92 – 206هـ/ 711 – 815م)، .* القاهرة- مصر: دار الفكر العربي،.

30. مؤلف مجهول. (2007م). *تاريخ الأندلس، تح عبد القادر بوباية، .* بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

31. مؤلف، مجهول. (1410هـ/1989م). *أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، ط2، تح إبراهيم الأبياري ، ص ص 100، 101.* بيروت، لبنان: دار الكتاب المصري- القاهرة - ودار الكتاب اللبناني.

32. مؤنس حسين. (، 1431هـ/ 2000م). ، *معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط5، .* القاهرة- مصر: دار الرشاد،.

33. يوسف، دويدار. (1414هـ/1994م،). *المجتمع الأندلسي في العصر الأموي(138-422هـ/ 755-1031 م)،.* القاهرة- مصر: مطبعة الحسين الإسلامية،.

EISSN: 2602-781X————————ISSN: 2253-0347